# الثورة الريفية والفكر الإصلاحي والوطني في المغرب

عثمان أشقري

في ماي ( أيار ) ١٩٢١ كان بضع مئات من رجال بني ورياغل قد انتقلوا إلى مكان بأرض القبيلة المجاورة لهم ـ بني تمسمان ـ يسمى « القامة » وأقاموا فيها معسكراً للمراقبة والاستعداد لقتال الجيش الاسباني الزاحف . وهذه الجماعة من المجاهدين هي التي بالتفاعل مع الأحداث المتعاقبة ستشكل بؤرة السلطة السياسية والعسكرية التي ستنمو ، وتتطور ويتم الاعلان عنها رسمياً في يوليو ١٩٢١ تحت اسم وحكومة « جمهورية الريف » .

ان تكوين رباطات للجهاد ، هنا وهناك ، في الريف الغربي أو الشرقي ظاهرة مشهورة ومعروفة ، فما هي ـ إذن ـ الشروط الخاصة والاستثنائية التي ـ بالتفاعل مع المقاومة الشعبية المسلحة اتاحت افراز الظاهرة الفريدة التالية : تحول رباط الجهاد التقليدي إلى إطار أولي انطلق منه مسلسل تكون سلطة سياسية وعسكرية حملت في ذاتها مشروعاً حقيقياً للتقدم والتحديث ؟.

لم يجتمع الأنصار حول ابن عبد الكريم فى جبل « القامة » باعتباره شريفاً أو صاحب «بركة » . كما أن علاقة عائلته الودية جداً مع الاسبان سابقاً، وعيشه طويلاً هو شخصياً بينهم ، لم يساعدا قطعاً على بروزه فوراً كقائد للجهاد كارزمي[١] ، ومن جهة أخرى ، فمحمد بن عبد الكريم الخطابي عاش قبل أحداث مقاومة ١٩٢١ ، وقيادته لها واندماجه الكلي فيها ، عاش مرحلة « انفصال » عميقة مع المجتمع الريفي ، ففترة الدراسة بفاس (١٩٠٢ ـ ١٩٠٤ ) ثم ـ بالخصوص ـ فترة العمل كصحفي ومعلم وقاضٍ بمليلية (١٩٠٧ ـ ١٩١٥ ) تبرزه لنا قريباً فكرياً ونفسياً من النخبة الإصلاحية وعلى هذا الأساس ، ليس فقط أنه أدان مجتمعه الأصلي التقليدي ، ولكن وقف موقف الضد من مقاومته « الفتح » الاسباني ، وليس هذا بالضرور تواطؤاً وعمالةً ولكن المظهر الأكثر تمزقاً ومأساوية لوضعية رجل الإصلاح ( العالم والمثقف ) وقتها . فالانتفاضة الشعبية التي جاءت بعبد الحفيظ

(١) جرمان عياش : « أصول حرب الريف » منشورات سمر/ السوربون ١٩٨١ .



الانتفاضة سيحدث من المرارة وخيبة الأمل ما يوازي ما فجره انطلاقها من أمل وحماس . وبالنسبة لابن عبد الكريم فهذا لن يزيده إلا اقتناعاً بصواب النهج الذى صار فيه : التعاون مع اسبانيا والانفتاح من خلاله على الحضارة الحديثة. ففي ١٩١١ ـ مثلاً ـ ستقع مشادة صحفية بينه وبين صحيفة « السعادة » الموالية لفرنسا[٢] وأساس هذه المشادة هو موقف ابن عبد الكريم العدائي من فرنسا مقابل التأييد التام لاسبانيا وقد برر ابن عبد الكريم موقفه كالتالي :

ـ احتلال فرنسا للجزائر وتونس لم ينتج عنه سوى الاستعمار والمزيد من التأخر للبلدين المحتلين .

ـ التعصب الديني والاستبداد والجهل هم ما يحول دون وجود صحافة مغربية حرة وبالتالي ضرورة اللجوء إلى الصحافة الاسبانية لفضح مقاومة هذه الوضعية ـ لا يمكن اتهام اسبانيا بكونها عدو المسلمين ( المغاربة ) التقليدي ، فمسألة الأندلس ـ مثلاً ـ هي ـ أولاً ـ مسألة قديمة ثانياً : الاسبان كانوا في موقف الدفاع عن أرضهم ثالثاً : في ذلك العصر كانت تسود الأفكار المسبقة والجهل ، أما الآن فنحن في عصر الأنوار حيث السياسة شيء والدين شيء آخر . وبالطبع ففرنسا لا تحتاج إلى من يلقنها شيئاً في هذا المجال لكن ما تفعله في البلدان التي تستعمرها شيء آخر مخالف تماماً ، إنه تشجيع التعصب الديني والخرافة والجهل ثم ما قيمة « التقدم » ( إذا فرضنا حدوثه ) بدون حرية ولا استقلال ؟ وبدون جدال فهذه أفكار تضعنا مباشرة في قلب الأطروحة المركزية التي يمكن القول ان كل فكر الإصلاح في المغرب بعد سقوط الحركة الحفيظية تمحور حولها وهي القائلة ان نشر أفكار الرقي والاصلاح هو السبيل الأوحد للخروج من وضعية الضعف والتأخر ، وبالتالي التنديد أو في أحسن الأحوال ـ الوقوف السلبي إزاء الدعوات إلى الجهاد والمقاومة المسلحة ، ومحمد بن عبد الكريم عمل بنشاط في هذا الاتجاه ، وهذا بالطبع قبل ١٩٢١. فكيف سيقع التحول ؟

يؤكد الاستاذ ج . عياش في اطروحته المنشورة أن ابن عبد الكريم بقي إلى اللحظة الأخيرة ـ لحظة وقوع معركة « ظهر ايران »(جوان ١٩٢١) وإحراز أول انتصار مدو على الاسبانيين ـ مقتنعاً بضرورة «الحوار» و«التعاون» وساعياً إليهما[٣] والذي يقرأ ما كتبه الأستاذ ج . عياش في هذا الصدد يتكون لديه ـ ولا ريب ـ شعور بأن عبد كريم أكثر مما سعي إلى الثورة وإعلان المقاومة المسلحة فهو وجد نفسه منساقاً داخلهما فهل هذا الإعلان عن أن « دوراً » ما كان شاغراً لم يفعل ابن عبد الكريم سوى أنه ملأه وكان مرغماً من حيث يدري أو لا يدري . الجواب على هذا السؤال ـ في تقديري ـ يقتضي استعراض ابرز ملامح البنية الاجتماعية في الريف وتطورها ، على الأقل في الفترة السابقة مباشرة

(٢) جرمان عياش : نفس المرجع ص ١٨٣ وما بعدها .
(٣) جرمان عياش : نفس المرجع ص ٣٢١ وما بعدها .

عامل الجغرافيا قد لعب دوراً بارزاً في تحديد معالم هذه البنية وبقائها ثابتة نسبياً وهذا على مستويين :

ـــ مستوى التشكل الجماعي الأولي : الوحدة العائلية الكبرى ـ جماعات العائلات الكبيرة .

ـــ مستوى ديناميكية الجماعة الكبرى : القبيلة ـ الحلف القبلي .

فالوحدة الأصلية في الريف هي الجماعة العائلية المتلاحمة بفعل الاحساس المشترك بالقرابة وعلاقة النسب ، وفوقها وحدة جماعية العائلات المنشق عنها « إجماعة » وهي هيئة تقريرية مكونة من رؤساء العائلات الأصلية ، وهذه الجماعات كلها تعيش في نوع من التجانس النسبي فالملكية الخاصة موجودة ومعترف بها لكنها محدودة بمحدودية عنصر تراكم وسائل الانتاج ، وجميع الرجال أحرار وحاملون للسلاح ومشاركون بهذا الشكل أو ذاك في الحياة الجماعية العامة ، لكن الطابع الديمقراطي يبقى رغم ذلك محدوداً . انها على حد تعبير الاستاذ ج . عياش « ديمقراطية الفلاحية المالكين » ونضيف : الفلاحين المالكين المحدودين . وهذا معطى أساسي أول ، أما القبيلة فهي ائتلاف مستوى الاجتماع الريفي الثاني ويمثلها القائد المجسد لسلطة المخزن وهذا معطى أساسي ثان ، لأن أحداثاً تاريخية معروفة في العشر الأوائل من القرن العشرين سيترتب عنها « القطيعة » بين الريف والمخزن وبالتالي شغور هذا « الموقع » الاجتماعي السياسي الهام فقبائل الريف كانت تعتبر نفسها دوماً المدافع عن الثغور الشمالية للبلاد . وكانت بالطبع تفعل هذا باسم السلطان والجهاد وهذه هي الوضعية التي ستتبدل جذرياً بعد اضطرار السلطان عبد العزيز ثم عبد الحفيظ ـ بالخصوص ـ إلى قبول الأمر الواقع والاستسلام للاستعمار ، وباعتبار الريف ـ مثلاً ـ لم يعرف ظاهرة مثل ظاهرة « القياد الكبار »[٥] فإن بنيته التقليدية الأصلية ستبقى نسبياً حية ومتلاحمة وهذه البنية هي التي سيحاول أعيان محليون ( بمباركة ومساعدة من اسبانيا ) الاستحواذ عليها وتوجيهها لخدمة مصالحهم الخاصة لكن هذا سيبقى ظاهرة محدودة وهامشية وذلك على الأقل لسببين :

ـــ الضعف الاقتصادي العام لمنطقة الريف .

ـــ التناقض بين الاستعمارين الفرنسي والاسباني .

ويبقى الطابع العام للشريف وقتها هو التالي : بنيات تقليدية أصلية ما تزال تحتفظ نسبياً بفعاليتها وديناميكيتها يقابلها غياب شبه كلي للدولة . وبالتالي فنحن ازاء صورة

---

(٤) جرمان عياش : نفس المرجع ص ٩٥ ـ ١١٢ ـ دافيد مونتغمري هارت : « مسن République إلى Républik = المؤسسات الاجتماعية السياسية الريفية وإصلاحات عبد الكريم » دراسة منشورة ضمن كتاب « عبد الكريم وجمهورية الريف » ماسبيرو ١٩٧٦ . ص ٢٣ ـ ٤٥ ـ روبير مونطاني : « بعض ملامح التغيير السياسي في الريف من ١٨٩٨ إلى ١٩٢٥ » . فاس ١٩٢٥ .

(٥) إن الشريف الريسوني ليس فقط أنه لم يتمكن من بسط نفوذه على الريف ولكن علاقاته المتقلبة مع اسبانيا تجعله بعيداً عن نموذج قائد كبير مثل « الكلاوي » .

حاضره باسم « المشروعيه » وتتقدم في زحفها معطله اليات « المجتمع المتمدن » التقليدي والاستحواذ عليه . ان « المجتمع المدني » في الريف ظل إلى هذا الحد أو ذاك محافظاً على ميزته وقوته الأصيلتين الذاتيتين وإلى هذا المجتمع ينتمي محمد بن عبد الكريم الخطابي ، وآليات دفاع هذا المجتمع الذاتية هي التي ستحول المعلم والصحفي المتشبع بأفكار الاصلاح ونشر المدنية والرقي بواسطة الجريدة والمدرسة إلى الثائر الذي سيعرفه العالم باسم عبد الكريم الخطابي ـ قائد أول ثورة وطنية وشعبية هزت أركان الاستعمار والامبريالية في العصر الحديث .

لقد خاض الريف مقاومة أولى ظافرة بقيادة الشريف محمد وامزيان ( ؟ ـ ١٩١٢ )[٦] وشكلت هذه المقاومة الحلقة الأولى التي برز فيها واضحاً إحساس الريفيين بعزلتهم وفي نفس الوقت وحدتهم ، فالريفيون كما هو معروف ـ وقفوا إلى جانب « بوحمارة » والراجح أنهم فعلوا هذا ليس ضد السلطان الذي خذلهم . ثم ان بوحمارة لم يفرض نفسه عليهم إلا بإدعائه انه ابن السلطان الشرعي المولى محمد بن الحسن ، فوقف الريفيون إلى جانبيه باسم الجهاد والمشروعية ، ولكن لما تكشفت الحقيقة وبرز سلطان الجهاد الشرعي ( عبد الحفيظ ) ثاروا ضد المدعي الخائن وأيدوا البيعة الحفيظية لكن أي شيء لم يتغير حقيقة ، فالسلطان بقي دائماً بعيداً عنهم وهكذا ـ مثلاً ـ عندما سيجتمعون على كلمة واحدة ( كلمة الجهاد ) وراء قائدهم الجديد ( محمد امزيان ) ويرسل هذا الأخير بعثة إلى فاس بشأن مسألة استغلال مناجم ريفية ـ وهو ما يطالب به الاسبان ـ فالسلطان الجديد سيتهرب من الجواب ـ بل انه وبعد مرور وقت طويل سيرسل إليهم ناصحاً إياهم بالجنوح إلى السلم ، وبالطبع فلن يأخذ الريفيون بالنصيحة وستستمر المقاومة لكن ضمن أي إطار ؟ فالريفيون الآن وحدهم مهددون بالتحول إلى معارضين للسلطان وبالتالي سيجدون أنفسهم خارج « الأمة » . ثم هناك جماعة « أصدقاء اسبانيا » ونشاطهم التخريبي الداخلي اما « حركات » الجهاد فهي تتجمع وتتفكك حسب الأمكنة والأزمنة وبدون أي إطار تنظيمي موحد ومستقر يتحكم فيها . إن زعامة الشريف محمد امزيان هي وحدها ما كان يشكل بؤرة التقاء والتحام حركة الجهاد القائمة وهي ، زعامة لا يسندها إلا عنصران : شخصية الزعيم ذاتها والمثل الأعلى الديني ( = الجهاد ) لكن ما هي قوة العنصر الثاني ـ بالخصوص ـ إذا كان الخصوم قادرين على المحاججة بأن السلطان لا يبارك هذا الفعل بل ويذمه .

أما العنصر الأول فهو رهن بقدرة الزعيم على الاستمرار في الوجود وتحقيق الانتصارات وهذا ما سيوضع له حد في ماي ١٩١٢ لما سيستشهد الشريف محمد امزيان ويستغل الاسبان هذا الحادث سياسياً إلى أقصى حد قد يصير بالتالي في الريف ازاء الوضعية التالية : جماعات محلية متروكة لنفسها ومنقسمة على ذاتها لم تتوقف عن المقاومة لكن في وضع من الفوضى وبدون أن يتوفر العَصب الذي سيشد فيما بينهما ، ويمنحهما

---

(٦) العربي الورياشي : « الكشف والبيان عن سيرة بطل الريف الأول سيدي محمد أمزيان » .

تخرج عن نطاق الزعامة التقليدية التي ظهرت في المغرب هنا وهناك على امتداد تاريخه ـ الزعامة القائدة للجهاد أو المنددة بعدم استمرار السلطة المركزية في تجسيد المشروعية الدينية . والريفيون في ظروف عشر سنوات استبدلوا سيدي عبد العزيز ببوحمارة ، وبوحمارة بعبد الحفيظ ، فهل كانوا أيضاً سيستبدلون زعامة الشريف محمد أمزيان ويدفعون بها إلى نهايتها القصوى الحتمية بالطبع لا يمكن الجواب على هذا السؤال ، ولكن كذلك لا يمكننا أن نغفله أو نتجاهله كما لا يمكننا ـ كذلك ـ إلّا أن نلاحظ أن هذه الزعامات المستندة إلى قوة إحياء المثل الديني قد وصلت في فترة اشتداد الضغط الأوروبي الاستعماري واختلال ميزان القوى الكبير لصالحه وصلت إلى نهاية الطريق المسدود وبالتالي انعزلت وأصبحت تدور حول ذاتها ، وتهدر قواها ولعل هذا ما يجعلنا نفهم قليلاً وضع التشرذم والتهلهل الذي يلاحظه كل دارس لحركة المقاومة المسلحة التي اندلعت في عموم المغرب بعد توقع عقد الحماية بالخصوص (١٩١٢) ، حيث ان فرنسا واسبانيا ، الآن ، إلى جانب القوة العسكرية والمالية اللتين تتوفران عليهما يمكنهما الادعاء انهما انما يتدخلان في المغرب باسم السلطان وحماية المشروعية التقليدية وبالتالي إسقاط حركة المقاومة المسلحة في مجرد وضع « سيبة » أو « خروج ديني سافر »وهذا يعني أحد أمرين : اما الاستمرار في المقاومة اليائسة بزعامات محلية تقليدية ( قبلية أو دينية أو هما معاً ) حتى وقوع المقدور أي الاستسلام لكن المبرر وغير المخجل ، اما حدوث تطور شكلي ونوعي في الزعامات المحلية والارتقاء بها إلى مستوى الظرف والمواجهة القائمة .

والأمر الثاني : وبالاستناد إلى علامات ومعطيات سنشير إليها بعد حين ، هذا هو ما نعتقد أنه وقع في الريف وكان في أساس انطلاق حركة المقاومة الظافرة فيه بزعامة محمد بن عبد الكريم الخطابي .

جاء في مخطوط « الظل الوريف في محاربة الريف » في فصل « ذكر مبايعة الأمير محمد بن عبد الكريم ، واجتماع كلمة المسلمين وقيامه بمأموريته على الوجه الأتم » ما يلي[٧] : « ... لم يكتم ما داخله من أهمية الامارة التي أسندت إليه ذاكراً لهم انه لم يقبلها إلّا امتثالاً لأمرهم الذي اجمعوا عليه غير انه لا بد أن يكون على بال من ان امارته ليست إمارة ملك وإنما هي لاجتماع الكلمة ... فأنا قد خالطت الاسبان زمناً طويلاً وأعرف مقاصدهم وأتوقع بحلولهم في هذا الوطن ما لا يعرفه أهل وطني ... وأقل ما يحل بالريف من هذه المصائب المتوقع حلولها منعهم من حرية انفسهم وعدم الانتفاع بالمنافع العمومية التي انتم الآن منتفعون بها من غير إلزامنا بما يكدر معيشتنا فيصير بحلوله بين ظهرانينا منعنا من التصرف في أراضيا وغاباتنا والمياه الجارية والأمور العادية إلّا بعد أداء ضرائب وغير ذلك من المصائب ... على اني اتوقع إذا نصرنا اللّه عليه فإن غير هذا الجنس ربما لا يدعنا نتمتع في أرضنا في راحة وسكون فإن الكفار ملة واحدة لا بد من تداخلهم في

(٧) أحمد سكيرج /محمد أزرقان : « الظل الوريف في محاربة الريف » مخطوط الخزانة العامة بالرباط . ص ٢١ ـ ٢٣ .

يتعين علينا بقطع النظر عن كونهم يتحزبون علينا ونحن إنما نطلب حقنا في الدفاع عن وطننا وما نعمله من البارود مع عدونا إنما هو بمثابة ندائنا على رؤوس الأشهاد باستغاثتنا بأن جميع الأحرار من كل جنس يمكنهم أن ينتصروا لنا ويكفوا اليد العادية علينا لكوننا لا نطلب إلّا الحق على أن نتيقن أن الاسبان إنما هو مرجوع إلينا لكونه لا منفعة له في مقابلتنا ولا يمكنه أن يتخلى عنا إذا قابلناهم بالجد ووقفنا في وجوههم وقوف السد بحيث لا يمكنهم الخروج عن الحد غير أننا نعمل مجهودنا مع الدول التي تريد الانتصار لاسبانيا استقبالاً خصوصاً فرنسا فلا نحاربها ولا نعاديها ما أمكننا من جميع الوجوه ونستعمل الوسائل التي تضمن السلم التام معها ولقد كان توجه لفرنسا السيد محمد أزرقان الحاضر الآن معنا وتفاوض مع بعض أعيانها المكلفين بالمسائل المغربية وأجابوه بما يقضي بتحسين العلائق معها وفي هذا الوقت أخي السيد محمد متغيب بباريس وأظن أنه لا يقتصر في تمتين الروابط الودية مع فرنسا التي نود أن تعاملنا ونعاملها بحسن المجاورة على الوجه الذي يفضي للراحة التامة بين الجميع ولقد كتب السيد محمد أزرقان في هذه الأيام إلى الماريشال ليوطي وما قصر معه في كون الريف دائماً يجب أن يبقى مع فرنسا بخير وفي نيته أن اكتب أيضاً للسلطان مولانا يوسف وأوجه إليه هدية على قدر الحال ليتحقق بأننا منقادون لأوامره التي يقضي الدين علينا بطاعته فيها خصوصاً حيث بلغه مبايعتكم لنا فيظن أننا خارجون عن الطاعة وبالكتب يتجلى هذا الوهم من الحضرة الشريفة والحاصل انه يتعين علينا جميعاً ان نكون يداً واحداً ونعمل على ما يضمن لنا حياتنا ودينا ووطننا مع مسالمة من سالمنا ... » .

ونسجل على هذا النص الطويل الملاحظات التالية : أولاً : تقديمه قبول الريفيين لزعامة ابن عبد الكريم كنوع من إعلان بيعة تقليدية مما يشترطه أمر القيام بالجهاد وهذا في الواقع مظهر خداع فالنص يكشف صراحة عن أن امارة ابن عبد الكريم هي « لاجتماع الكلمة»، وهذا هو المبرر الشرعي لكن ثمة مبرراً آخر لا يتم الإعلان عنه إلّا بطريق غير مباشر عبر ما يمكن تسميته بـ « خطبة الأمير ابن عبد الكريم بعد قبول منصب الامارة ( « فأنا قد خالطت الاسبان...») وهذا مبرر يكشف في ذاته عن عنصرين :

ـ لماذا ابن عبد الكريم بالذات ؟ جواب : معرفته الجيدة للعدو بحكم مخالطته الطويلة له .

ـ مقاومة العدو لأنه يهدد الحرية والأرض ( يهدد الاستمتاع بمزايا الأولى وخيرات الثانية ).

إذن فميزة الخبرة أو الكفاءة وحدها هي ما فرض امارة ( زعامة ) ابن عبد الكريم .

ثانياً : المقاومة هي للدفاع عن النفس ( الحرية ) والأرض ( الوطن ) وهذا تبدل مهم ( تطوير ؟) في مفهوم الجهاد حيث سيبرز العدو لا ككافر وغازٍ صليبي ـ مثلاً ـ ولكن بالأساس كهادف إلى السيطرة العسكرية والسياسية على الريف وطامع في الاستغلال الاقتصادي لخيرات أرضهم . وبقية النص تزيد ـ في تقديري ـ هذه الفكرة الخاصة تدعيماً : الإسبان هم مجرد جزء من كل دولي استعماري واستغلالي ( = الكفار ملة

كل جنس » و « الاستغاثة » بهم ـ ضرورة استغلال التناقضات داخل كتلة الدول الاستعمارية (فرنسا ، اسبانيا ... ) ـ إرادة الحفاظ على علائق « الشرعية » التقليدية مع السلطان ... وعليه ألسنا ـ هنا ـ بإزاء « منطق » من خلال مسرح الخطاب التقليدي يحمل في مضمونه ارهاصات التشكل الأولي لـ « سلطة جديدة مستقلة » وقائمة بذاتها لا تكشف عن نفسها هكذا أو تماماً في الواقع ولكن تفعله على نطاق تبرير ذاتها واكتساب المشروعية اللازمة وبالتالي ما هو هنا المنطق ؟

لقد أثير وما زال يثار نقاش حول التسمية التي يمكن اطلاقها على السلطة المحلية التي تمخضت عنها احداث الريف هذه : إمارة ؟ جمهورية ؟ جبهة ؟.. وفي تقديري أن مثل هذا النقاش يغفل جانباً الموضوعية الجوهرية والمتعلقة بـ « منطق » هذه السلطة وليس مجرد إطارها التشريعي أو الحقوقي ونعني بالمنطق هنا شيئاً محدداً هو التالي : مرتكز مشروعية السلطة الجديدة الناشئة وعامل ( أو عوامل ) مصداقيتها وهذا يقتضي ـ بداهة ـ وجود خطاب وممارسة سياسية حديثين مغايرين لما هو سائد وعليه فهل يمكن الكلام عن شيء من هذا القبيل في الريف خلال المقاومة المسلحة الشعبية برئاسة ابن عبد الكريم الخطابي ؟

عَبَر المجاهدون الورغاليون إلى أرض جيرانهم من بني تمسمان، وأقاموا معسكراً فوقها وفعلوا هذا باسم حق الدفاع عن أنفسهم ، ولم يمر إلا وقت قصير حتى يحرزوا على أولى انتصاراتهم المدوية على الاسبان ( معركة ظهر اوبران ) فتنظم إليهم قبائل أخرى ويرتبط الجميع بقسم « جبل القامة » ، ويشرع ابن عبد الكريم ـ الذي أصبح زعيماً بالإجماع ـ في تنظيم نواة السلطة السياسية والعسكرية الجديدة ، وسيتحقق جزء كبير من هذا العمل بعد الانتصار في «انوال » ( يوليو ١٩٢١ ) ، وهكذا يحدثنا ـ مثلاً ـ السيد اللوه ( وهو ممن عاينوا الأحداث ) عن « الأدوار » التي قام بها محمد بن عبد الكريم الخطابي في هذا الصدد ويحددها في ثلاثة[٨] :

ـ اقرار الحد الشرعي في حالة القتل المتعمد .
ـ تجريد الأفراد من السلاح وجمعه وخزنه ليستعمل فقط في المقاومة والجهاد .
ـ فرض العقوبة على من يخالف هذا الأمر .

ـ ويقرر السيد العربي اللوه « ان هذه الأدوار كانت دائماً يتم تحقيقها بعد استشارة الأعيان والشيوخ والفقهاء وأرباب الطرق » وهو ما يتطور فيما بعد إلى فرض سلطة « مجلس الشورى ، وجعل القوم يذعنون لمخططاته وتوجيهاته » وهو ـ بدوره ـ ما سيتطور إلى تأسيس الدولة الريفية كمآل طبيعي لصيرورة تطور الواقع الريفي تحت ضغط وقائع محلية ودولية فرضت اتخاذ هذا الاجراء التنظيمي أو ذاك من اجل حماية الواقع القائم

(٨) العربي اللوه « المنهال في كفاح أبطال الشمال » . تطوان ١٩٨٢ . ص ٢٥٧ .

بأرض بني تمسمان فعلوا هذا وسط مناخ مثقل بمشاعر اليأس والهزيمة[١٠] وانتصاراتهم الأولى فقط هي ما كان يمكنه أن يقلب عناصر الوضع القائم إلى ما يمكن تسميته بـ « الوضع الثوري » وبالتالي صار كل شيء ممكناً ، وبالنسبة لجماعة الورغاليين المعسكرين بجبل القامة فقد كان يلزم أن ينتصروا ، ويؤكدوا قدرتهم المستمرة على الانتصار ( أو على الأقل تحاشي الهزيمة والافناء التامين ) حتى يخرجوا من وضع الجماعة التي تعمل على هامش التيار العام أو المشروعية القائمة بل وبمواجهتها وتكسب صفتها الشرعية الذاتية والخاصة وهنا كانت ضرورة الوحدة القصوى وبالتالي إقصاء كل عوامل التشتت والتفرقة أي أن الوضع التقليدي بملابساته وعاداته السلبية عاجز عن ضمان الوحدة التي هي وحدها ضمان استمرار الجماعة/ الواقع الثوري وعليه فخطاب الوحدة هنا ليس خطاباً نظرياً ، انه ـ على العكس ـ واقعة حياتية وضرورة اجتماعية سياسية ـ ضرورة المجتمع الريفي في حماية نفسه وضمان استمرار وجوده ، وهذا المجتمع سيكتشف عناصر ( التوحد ) في ذاته ويحققها في ذاتها ومن هنا ـ في تقديري ـ طابع المحلية ( أو الخصوصية ) في التجربة الريفية ونقصد بهذا تفتح هذه الحرب وتطورها بالاستناد إلى تفتح وتطور البنية الأصلية والتقليدية للمجتمع الريفي ذاته وبالتالي فالسلطة السياسية العسكرية النامية هي سلطة المجتمع التقليدي ( = المجتمع المدني ) المتطور وليست ـ مثلاً ـ سلطته خارجية تسعى إلى هدم هذا المجتمع أو على الأقل احتوائه وما يمنح هذه السلطة مشروعيتها هو واقعها الذاتي ( الواقع الجديد أو الثوري ) وليس أي مثال خارجي مزعوم وهذه هي الواقعة الرئيسية في تقديري ـ في كل تجربة الحرب الريفية من زاوية السياق الذي أردنا أن نموقع داخله هذه الحرب ـ سياق عدم وقوع الإصلاح ـ فكرة وممارسة خارج تشكل السلطة السياسية الحديثة في المغرب ، والأطروحة التي حاولنا إجلاءها في هذا المجال هي أن الحرب الريفية بزعامة ابن عبد الكريم تشكل استثناءً في هذا المجال ، إذ هي التعبير الوحيد فيما نعلم ، عن ان المجتمع التقليدي المغربي ( = المجتمع المدني ) خارج الدائرة التي تم فيها اخضاع قواه الذاتية وتعطيل آلياته كان ما يزال قادراً على التكيف والتطور لكن هذا قطعاً ما كان ليقع بدون توترات وانقطاعات داخلية وفي الريف أخذ هذا طابع التواجه بين التفتح الذي يفرضه الوضع الجديد ـ الثوري ـ وبين ما سماه ابن عبد الكريم نفسه بـ « التعصب الديني » ، ولقد جاء هذا في تصريح للزعيم الريفي بعد انتهاء حرب الريف واستقراره بمنفاه بجزيرة لارينيون »[١١] وفي الواقع فهذا التصريح يشكل نوعاً من « النقد الذاتي » يفيدنا في النظر إلى حرب الريف عبر نظرة وتقييم الرجل الذي قادها ولعب الدور المركزي فيها وهذه

(٩) عبد الرحمن اليوسفي : « مؤسسات جمهورية الريف » ضمن كتاب « عبد الكريم وجمهورية الريف » . مرجع مذكور . ص ٨١ ـ ١٠٠ .

(١٠) كانت قوات الجنرال « سلفستر » متقدمة وقد أخضعت لسلطتها مجمل الريف الشرقي تقريباً .

(١١) مجلة « المنار » المجلد ٢٧ . العدد ٨ سنة ١٩٢٨ . ص ٦٣٠ ـ ٦٣٤ .

... الطرق ( = التعصب الديني ) في فشل حرب الريف ، وهذا الاستنتاج يجعلنا نواجه المسألة التالية : هل هذه عودة محددة إلى الاشكالية الإصلاحية ( السلفية ) ؟. لقد نشرت مجلة « المنار » المصرية السلفية « تصريح » ابن عبد الكريم المذكور تحت عنوان : جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق والشرفاء وكونهما سبباً لفشل زعيم الريف المغربي » وركزت المجلة نقدها للزعيم المغربي حول نقطتين :

— انبهاره بالمغرب وإرادته تقليد الترك الكماليين .

— عدم قدرته على التصرف مع معطيات الوضع الريفي الخاص كما يليق بحاكم مسلم متبصر - أي تأجيل المواجهة ( مع رجال الطرق ) إلى حين اكتمال شروط الاقناع والقبول ، والنقطة الأولى لا ينفيها ابن عبد الكريم بل أكدها في أكثر من مناسبة ، اما النقطة الثانية فيمكن من خلال التصريح - المذكور - تسجيل على الأقل ملاحظتين بصددها :

— الأولى : لا يمكن اتهام ابن عبد الكريم بعدم الانتباه إلى أهمية العامل الديني .

— الثاني : تعامل الزعيم الريفي مع هذا العامل يكشف في الواقع عن معطى بدون الانتباه إليه لا يمكن إدراك البعد الهام لما سميناه بخصوصية التجربة الريفية الخطابية وهذا المعطى هو التالي : التعامل مع المعطى الديني ( النموذج الديني السلفي ) من منطق المحافظة على الوضع الجديد - الثوري وتطويره وليس على العكس أي ان ما صار مهماً هو انقاذ الوضع الجديد وتعزيزه ومن هنا الطابع الانتهازي الذي تُدركه بسهولة في تصريح ابن عبد الكريم ، ولكنها قطعاً ليست انتهازية الفقيه - العالم فهذا الأخير يتعامل مع الواقع من منطق المحافظة على المثال - النموذج ، أما الأول فالواقع الريفي القبلي المتطور هو ما صار يهمه ، وهذا لا يعني - بالطبع - ان ابن عبد الكريم كان مستعداً - مثلاً - لنبذ المثال الديني إذا كان يتعارض كلياً مع الواقع القائم ( واقع الثورة ) وهذا لسبب بسيط وهو ان المثال الديني نفسه هو جزء أساسي من هذا الواقع ويدخل في لحمة تركيبية المعطاة وبالتالي ينطرح حلان : رفع هذا المعطى المثال إلى مستوى الواقع المتطور أو قمعه علانية أي قمع رموزه ، وحسب التصريح أعلاه فابن عبد الكريم حاول الحلين معاً وفشل ، ويبقى « الحل » الثالث وهو الذي اقترحته « المنار » السلفية ، لجم الواقع وحصره في أفق المثال - النموذج السني بانتظار فرصة لـ « التطور » وهذه الفرصة لن تأتي أبداً ، وبالتالي يبقى المبدأ الثابت والعام هو التسويف وتمرير المشاكل الحقيقية بدون حلها - لأن الحل واقعياً ونظرياً مستحيل وهذه هي مأساة الفكر السلفي: هروب المثال باستمرار ، والعيش بالتالي في حالة تهادن مؤقتة مع الواقع اما ابن عبد الكريم « فمأساته » أقل تجريداً أو شمولية : كيفية الانتصار على واقعة ملموسة وهي سيطرة مشايخ الطرق وهيمنتهم ، وعليه فانتهازية الفقيه - العالم هي انتهازية مطلقة اما انتهازية ابن عبد الكريم ( القائد الثوري ) فهي انتهازية « نسبية » ، وتبقى الواقعة الأساسية هي التالية : بدون الانتباه إلى تبدل منطق التعامل مع الواقعة الدينية المهيمنة ايديولوجياً ( = منطق الفقيه العالم ومنطق القائد والتعاطف السطحي ولا يمس في شيء المضمون العميق الثاوي في قلب هذه الظاهرة التاريخية المغربية الفريدة أي التطور البديل الذي طرحته ضمن السياق العام لـ « تطور » المجتمع المغربي ككل - أي اندماجه في مسلسل « التطور » الرأسمالي التابع ، وتوفر شروط هذا الاندماج السياسية ( السلطة السياسية الحديثة ) والايديولوجية السلفي الجديد ( الفكر الإصلاحي الحديث ) لقد علقت مجلة « المنار » على تصريح ابن عبد الكريم أعلاه وأبرزت بعضاً مما ليس على الزعيم المسلم المتبصر أن يفعله . وفعلت هذا لأن البعد المحلي الخصوصي في التجربة الريفية الخطابية غائب تماماً عن وعي أصحابها بالتجربة تلك ، بل يمكن القول ان ابن عبد الكريم نفسه لم يكن مدركاً ( وليس هذا ضرورياً ) لكل أبعاد وملابسات الوضع الجديد - الثوري - ومن هنا ولا شك نغمة الاحباط واليأس والتشكك التي تغلف تصريحه - نقده الذاتي المذكور وبالتالي إمكانية فتح الباب أمام جميع التأويلات و « المنار » السلفية اختارت تأويلها فشل كل فعل أو رد فعل يقع خارج المنطق الإصلاحي « السلفي » وهذا هو التأويل الذي نقله منها رواد مصلحون مغاربة ونظروا من خلاله إلى التجربة الريفية الخطابية وحكموا عليها[١٢] .

* * *

لقد أثارت انتصارات الريف من الحماس بقدر ما أثارت من الخوف داخل المدن وفي مقدمتها فاس[١٣] وهكذا كتبت قصائد تمجد الحرب الظافرة وتحيي قائدها[١٤] وتهيء شباب مديني للالتحاق بالجبهة والتحق أفراد منهم بالفعل[١٥] وبالمقابل فقد سارع آباء من الأغنياء والأعيان إلى سحب أبنائهم من المدارس الفرنسية تحسباً لكل الاحتمالات[١٦] وبقي السؤال الكبير معلقاً : هل جاءت الساعة التي ستخرج فيها حركات المقاومة والجهاد المعزولة في الجبال وتفرض على المدن أن تتبعها؟ ان هذا يفرض أن الحرب الريفية القائمة ليست مجرد حركة مقاومة تقليدية ، وان قائدها تجاوز منطقة الدعوة الجهادية المستندة إلى مجرد إحياء المثل الأعلى الديني وهذا ما يرى الباحث جاك بيرك - مثلاً - انه تحقق وتم الوعي به على الأقل من ظرف الأعيان بفاس ان صورة معينة - إذن - عن الحرب الريفية الخطابية بدأت تفرض نفسها وهذا على الاقل ابتداءً من سنة ١٩٢٥ لكنها ليست قطعاً بالصورة التي تعكس تماماً مضمون التغيير والقطيعة الذي حبل به الحدث الريفي

(١٢) عبد الله العروبي : « عبد الكريم والوطنية المغربية حتى عام ١٩٤١ » ضمن كتاب « عبد الكريم وجمهورية الريف » مرجع مذكور . ص ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(١٣) جاك بيرك : « المغرب بين حربين » منشورات « سوي » . الطبعة الثالثة ١٩٧٩ .

(١٤) توجد نماذج منها في عبد الله كنون : « أحاديث في الأدب المغربي الحديث » مطبعة النجاح الجديدة . البيضاء . ١٩٨١ - وكذلك : ابراهيم السولامي « الشعر الوطني المغربي في عهد الحماية ١٩١٢ - ١٩٥٦ » دار الثقافة . البيضاء .

(١٥) عبد الكريم غلاب : « تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى اعلان الاستقلال » . الشركة المغربية للطبع والنشر . البيضاء . ١٩٧٦ .

(١٦) جاك بيرك : « المغرب بين حربين » . مرجع مذكور . ص ١٨١ .

الخطابي . اي ان مشروع القلب الذي بدأت ارهاصاته في شقق المشروع ... هذا بقي مهمشاً وثاوياً في قعر « لاوعي » الفعل الجديد ـ فعل الثورة وجذوره وامتداداته المحلية ، وبالمقابل سطعت وفرضت ذاتها صورة الحرب ـ الجهاد والزعيم ـ المجاهد المجسد لمثال النموذج الديني التقليدي ـ والواقع ان عاملين اثنين لعبا دورهما في تقرير هذه الواقعة ، نموذج دعاية ابن عبد الكريم والبنية الايديولوجية السلفية المتحكمة في وعي النخبة المستهدفة بالدعاية .

فبصدد العامل الأول نعرف ان ابن عبد الكريم ظل إلى آخر لحظة حريصاً على استمرار ـ ولو ظاهرياً ـ الروابط التقليدية بين الريف والسلطان الشرعي وحتى في ١٩٢٥ لما ستدخل فرنسا الحرب إلى جانب اسبانيا ويشهر السلطان المولى يوسف علانية بالعصاة والمتمردين فإن ابن عبد الكريم لن يرى في فعل السلطان إلاَّ خضوعاً ـ أولاً ـ للقوة الاستعمارية وثانياً مظهراً لتأثير حاشيته الفاسدة مع نموذج المقري « الوصولي » وغبريط وأبو شعيب الدكالي « منبع كل الرذائل »[١٧] وهكذا نرى الزعيم الريفي في رسالة له إلى السيد عبد العزيز كناني العالم والفقيه ، والعراقي قاضي فاس[١٨] لا يفعل شيئاً سوى دعوة الرجلين إلى مباركة حرب الريف المقدسة وينبههما الى أنه إذا كانا هما سجينين فالريفيون ليسوا كذلك بالإضافة إلى انهم يتوفرون على الأسلحة الكفيلة بطرد الكفار من البلاد ، ومن جهة أخرى ، فالريفيون ليسوا اطلاقاً مستعدين للاعتراف بسلطة سجين ولو يكون هو السلطان . وهذا لا يعني ـ استنتاجاً ـ دعوة إلى استبدال « مشروعية » بأخرى ولكن فقط تحرير « المشروعية » التقليدية والقضاء على من يؤثرون عليها سلبياً كما لا يمكن أن يعني هنا مجرد مناورة بارعة من الزعيم الريفي لاستمالة النخبة إلى صفه ولكن خصوصاً تأكيداً لهذه الحقيقة وهي ان الزعيم الريفي لم يفلت فكره ، ومفاهيم تمظهر هذا الفكر من آثار البنية الايديولوجية المهيمنة والتي ما كان لها أن تطرح ـ مثلاً ـ مسألة شرعية السلطة السياسية الجديدة التي تبلورت في الريف إلاَّ من داخل مفاهيم مثل « التقليد » و « الاستمرارية » وهكذا يمكننا الكلام عن مستويين يمكن من خلالهما النظر إلى التجربة الريفية الخطابية : مستوى الحدث ـ الواقع ومستوى الحدث ـ الفكر أو التعبير عن الحدث والمستوى الثاني الخاضع لبنية التقليد والسلفية هو وحده ما ضبط ليس فقط ردود افعال النخبة المغربية وأشكال تعاملها مع التجربة الريفية الخطابية ولكن أيضاً « الصورة » التي أشاعها عن هذه التجربة الذين كانوا في قلبها أنفسهم .

ان السيد علال الفاسي يروي لنا ـ مثلاً ـ هذه الواقعة البالغة الدلالة[١٩] : « كان غرض الاستعماريين من هذه الدعاية : ( ضد ابن عبد الكريم ) ان يقنعوا المرحوم مولاي

---

(١٧) دانيال ريفي : « القيادة الفرنسية وردود افعالها تجاه الحركة الريفية (٢٤ ـ ١٩٢٦ ) » ضمن كتاب « عبد الكريم وجمهورية الريف » . مرجع مذكور . ص ١٠١ ـ ١٠٣ .

(١٨) مبير ـ جاك : « المغامرة الريفية وخلفياتها السياسية » باريس . ١٩٢٧ ( نص الرسالة بالفرنسية ) .

(١٩) علال الفاسي : المقدمة التي كتبها لكتاب « زعيم الريف محمد بن عبد الكريم الخطابي » محمد العلمي البيضاء . ١٩٦٣ .

يوسف والمحزن بسوء نية عبد الكريم ليبرروا تدخلهم المسلح ضده ، وقد أفسدنا على الفرنسيين خطتهم هذه في ابانها حيث كتبنا رسالة دورية نسبناها للبطل الريفي ، كتبناها بالخط في نسخ عديدة واهرقنا عليها شيئاً من الزيت لتظهر وكأنها واردة من الجبليين القادمين لبيع زيوتهم ثم وزعناها على العلماء والمسؤولين في المغرب وكان فحواها شكر البطل لأعيان الأمة على تأييدهم له وتمنيه أن ينصره الله ليحتفل معهم بجلاء الأجنبي في ضريح مولاي ادريس وفي ظل ملك البلاد » وهذا لا يمكن أن يعني إلاّ شيئاً واحداً ، ان صورة معينة للحرب الريفية هي وحدها ما كانت الشروط الاجتماعية والثقافية للنخبة المغربية وقتها تسمح بإدراك تلك الحرب من خلالها ، وهذه الصورة هي ما عبر عنه الاستاذ عبد الله العروي معمماً الحكم على مجمل الفكر المغربي الوطني قبل الثلاثينات وبعدها(٢٠) .

« من بين المكونات الثلاثة التي تبرز في كل ملمح من ملامح نشاط عبد الكريم : المكون الريفي الخالص ( أو القبلي إذا فضلنا ) المكون الخارجي الأوروبي والمكون السلفي فالأخير وحده ـ ووحده فقط ـ هو الذي تم الرجوع إليه واستبطانه من طرف الوطنية السياسية في المغرب » .

---

(٢٠) عبد الله العروي : « عبد الكريم الخطابي والوطنية المغربية ... » مرجع مذكور .